

جهود عبد الحميد بن باديس في تعليم اللغة العربية مقارنة لسانية حديثة

Efforts of Abd-El-Hamid Ibn-Badis in Arabic Language Didactics « Modern Linguistic Approach”

تاريخ القبول: 2018-06-18

تاريخ الإرسال: 2018-03-29

أ.د فوزية سرير عبد الله

serierfouzia@yahoo.com

قسم اللغة والأدب العربي

جامعة البليدة2 (الجزائر)

الملخص:

عمل عبد الحميد بن باديس (1889-1940) رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إبان فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر على إحياء مقومات الشخصية الجزائرية وحماتها، وكان أسمى هدف له هو نشر اللغة العربية بين أبناء وبنات الجزائر، وقد نادى بـ:

1- حرية تعليم اللغة العربية. 2- وإنشاء صحافة عربية.

وهنا طرحنا إشكالية بحثية مفادها: ما أهمّ الجهود التي قدّمها عبد الحميد بن باديس من أجل إنجاح عملية تعليم وتعلّم اللغة العربية لأبناء الجزائر؟

للإجابة عن الإشكالية نقدّم هذه الورقة البحثية التي نروم فيها الحديث عن جهود ابن باديس في تعليم اللغة العربية وتعلّمها، ومسائل أخرى ندرسها في ظلّ التطورات التي عرفها البحث اللساني الحديث عامة وتعليمية اللغة خاصة.

الكلمات المفتاحية: تعليم - ابن باديس - المواد التعليمية - اللغة العربية - تعليم اللغة - المنهج التعليمي.

Summary:

Abd-El-Hamid Ibn-Badis (1889-1940), President of the Association of Algerian Muslim Scholars during the period of the French colonialisation of Algeria, revived, and protected the Algerian personality. His highest aim was to spread the Arabic language among the sons, and daughters of Algeria. He called:

1- Freedom of teaching Arabic. 2. Establishment of an Arab press.

Here we put forward a research problem: What is the most important efforts made by Abd-El-Hamid Ibn-Badis for the success of the process of teaching, and learning Arabic language for the children of Algeria?

In order to answer the problem, we present this paper in which we discuss the efforts of Ibn Badis in teaching, and learning Arabic language, and other issues we study in the light of the developments known in modern linguistics research in general, and language education in particular.

keywords: Education - Ibn Badis - Teaching materials - Arabic language - Teaching language - Curriculum.

1-وضعية التعليم في الجزائر قبل الثورة التحريرية:

عزّب الدين الإسلامي شمال إفريقيا منذ الفتح الإسلامي، واتخذ سكان هذه المنطقة اللغة العربية بديلا عن لغتهم، ومنذ ذلك الوقت حافظت العربية على مكانتها إلى أن وقعت الجزائر تحت سيطرة الجيوش الفرنسية، التي عملت كل ما في وسعها من أجل القضاء على اللغة العربية، وإحلال الفرنسية مكانها، ليس هذا فحسب بل حاولت نشر الفتنة بين أبناء الوطن الواحد الجزائر، باستعمالها الأمازيغية ضدّ العربية، "فقد استعملت فرنسا بالضبط اللغة الأمازيغية ضدّ التعريب، بل أنشأت أجنبية غير عربية لإعادة تدوين لهاجاتها. نشرت وزارة الحرب في سنة 1844 قاموسا فرنسيا -بربريا عنوانه اللهجة المكتوبة والمنطوقة من سكان القبائل في منطقة الجزائر العاصمة."¹

وفي تقرير رسمي للحكومة الفرنسية صدر سنة 1849 أكّدت السلطة بأنه يجب كتابة جميع البلاغات الرسمية والعقود باللغة الفرنسية اللغة الحاكمة، بل جعلوا هدفهم الأساسي الذي يجب أن يعتنى به "قبل كل شيء هو السعي وراء جعل اللغة الفرنسية دارجة عامة بين الجزائريين، وعقدت السلطة العزم على استمالتهم، وتمثيلهم، وإدماجهم فيهم، وجعلهم فرنسيين..."²، فاللغة الفرنسية في اعتقادهم هي اللغة الأمّ واللغة العربية هي لغة الغزاة الذين سيطروا على منطقة شمال إفريقيا وسكانها.

"ولم تكتف هذه الإدارة بفرض اللغة الفرنسية في التعليم والإدارة بل ذهبت أبعد من ذلك حيث طلبت من العيان والطبقة البرجوازية إرسال أبنائهم إلى فرنسا، وذلك لحسن التعليم والتحصيل من المنبع الأصلي للغة"³، وهي طريقة تؤكّد المناهج التعليمية الحديثة على اتباعها للتمكّن من اللغة الأجنبية المراد تعلّمها، وقد بما دأب العرب إرسال أبنائهم إلى البوادي لتعلّم العربية الفصحى من منبعها.

ولتمكين اللغة الفرنسية ظهر مرسوم رئاسي في عهد الجمهورية الثانية (1848-1852) ينصّ على إنشاء المدارس العربية الفرنسية بالجزائر بتاريخ 14 جويلية 1850 في المناطق الآهلة بالسكان "وهي مدارس ابتدائية أين تدرّس اللغتان الفرنسية والعربية، إضافة إلى القراءة والكتابة في كتب موضوعة تحت الرقابة الاستعمارية، وكذلك يدرّسون الحساب والتاريخ والجغرافيا والرسم وتكوين فرق الموسيقى للأغاني الوطنية التي تغنى كل يوم من طرف هؤلاء الأطفال."⁴

وفي المقابل يشير المؤرّحون إلى أنّ الجزائر عرفت قبل احتلالها توسّعا للحركة التعليمية وذلك بانتشار المدارس والمعاهد التعليمية والزوايا في كلّ القطر، وقد استولى الاحتلال على معظمها، وحوّل بعض المساجد إلى كنائس مثلما حرّب بعض المدارس، ذلك أنّ اللغة العربية -وهي لغة التعليم فيها- كانت عائقا أمام انتشار اللغة الفرنسية، لذا "حوّلت لغة التعليم من العربية إلى الفرنسية وطبّقت النظام التعليمي الموجود في فرنسا على النظام التعليمي الموجود في الجزائر"⁵، بنيت القضاء على اللغة العربية والدين الإسلامي، والدليل على هذا حملة غلق المساجد التي شنتها، فقد تمّ غلق "13 مسجدا كبيرا و140 مسجدا صغيرا و12 زاوية بالجزائر العاصمة وحدها، وما إن حلّت سنة 1862 لم يبق للمسلمين سوى 4 مساجد كبيرة و17 مسجدا

صغيرا ومن بين المساجد التي مسّها الحيف والجور مسجد كشاوة الذي حول بتاريخ 18 ديسمبر 1832 إلى كاتدرائية (سيده الجزائر)...⁶

لم يكتف المحتلون بالاستيلاء على مؤسسات التعليم وبهدمها أو تغيير وظيفتها، والقضاء على كلّ المؤسسات التي كانت اللغة العربية فيها هي لغة التعليم والعلم والبحث، بل صادرت الأملاك الوقفية التي كانت تتكفل بالمؤسسات التعليمية والدينية من خلال الأرباح التي تجنيها، وشدّت الخناق على الجزائريين، بتشديد الرقابة على كلّ ما يأتيها من البلدان العربية والإسلامية من كتب وجرائد ومجلات، وقيدت حرية التنقل، حتى لا يتصل أبناؤها بما يثري ثقافتهم، ويعمّق ارتباطهم بهذه الثقافة، وينمي وعيهم بذاتيتهم.⁷

ولتفطن الأهالي للهدف الذي ترمي إليه السلطات الفرنسية منعت أبناءها من التسجيل في هذه المدارس، وألحقتهم بالكتاتيب ما دفع السلطات الفرنسية إلى "إصدار مرسوم سنة 1859 والذي يقضي بتحديد عدد الكتاتيب والمدارس القرآنية بقرارات ولائية في كلّ مقاطعة، وفي تقرير عامل عمالة وهران إلى الحاكم العام في هذا الموضوع قال: للوصول إلى رفع عدد تلاميذ المدارس العربية الفرنسية، هناك إجراء واحد، هو القضاء كلياً على الكتاتيب الموجودة في المدن، حيث يكون بالإمكان تأسيس مدارس عربية وفرنسية."⁸

وحتى تقضي اللغة الفرنسية على العربية، والنظام التعليمي الفرنسي على النظام الجزائري الذي كان سائداً، لم تتوقف السلطة عند غلق المدارس، وتحويل المساجد إلى كنائس، وإنما عملت على منع فتح المدارس والمعاهد الحرة، ولو بأموال الجزائريين، كما مارست رقابة صارمة على المدارس التي كانت موجودة بالرغم من قتلها، "وكلمّا لاحظت إخلالاً أو خروجاً عمّا هو مسموح به فإنّها تقوم بغلقها ولو بالقوة وتغريم أساتذتها، أو نفيهم أو النزج بهم في السجن، كما اشترطت الحصول على الرخصة خاصّة عندما نشطت الحركة التعليمية مع بدايات القرن العشرين."⁹

وأمام هذا الوضع المزري وسوء معاملة المعلمين والأساتذة والمثقفين والسعي إلى مسخ الإنسان الجزائري وتغيير عقيدته، "التجأت أعداد من العلماء الذين خافوا على عقيدتهم إلى الهجرة الداخلية، والخارجية، مغادرة البلاد والاتجاه نحو الأماكن البعيدة عن الضغط، هروبا بعقيدتهم وحفاظا على ثقافتهم ولغتهم، وبحثا عن الاستقرار النفسي."¹⁰

وقد وقف في وجه هذه الحملة التي شنتها السلطات الفرنسية للقضاء على عناصر الهوية الوطنية العربية - الإسلام - الجزائر - وطمس المعالم الثقافية وتشويه التاريخ الوطني، وقفت جمعيات، "ثقافية مكونة من أشخاص آمنوا بمبادئ الجمعية، حيث تتولى كلّ منها مهمة فتح مدرسة حرة، وتكفل بكلّ اللوازم التي تخصّ المدرسة وتتولّى أيضا دفع رواتب المعلمين، وتأمين المسكن لهم"¹¹، عملا على أن تبقى اللغة العربية "الأداة الأساسية للتفكير، والكتابة، والخطابة، والتواصل بين الأجيال، ولقد بدت هذه الغاية واضحة في حركة التربية والتعليم الواسعة التي عمّت بها جميع أنحاء الجزائر، ومست جميع فئات المجتمع من غير تمييز بين

كبيرها، وصغيرها رجالها ونسائها، ولقد كان لهذه الحركة أثرها الفعّال في إعادة مجد اللغة العربية في الجزائر.¹² وهذا العمل هو الذي أخلصت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين النية في تحقيقه.

2- دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

تأثر الجزائريون بالحركة الإصلاحية في المشرق العربي في بداية القرن العشرين، وظهرت بوادر هذا التأثير بعد زيارة محمد عبده في 1903 للجزائر، تجلّى ذلك في ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في 1931، على يد عبد الحميد بن باديس، دفاعاً عن مقومات الشعب الجزائري التي يحاول الفرنسيون بطرق مختلفة القضاء عليها، وكان من بين غايات الجمعية أن تردّ للغة العربية عزّها، ومكانتها في المدرسة والإدارة والمحكمة، وأن تبقى حيّة على ألسنة أبنائها الذين يصبو الاحتلال إلى تغريبهم والتشكيك في انتسابهم للدين الإسلامي والعروبة.

وقد أولت الجمعية اهتمامها في المقام الأول لمظهرين هما¹³:

1- الأمية وآثارها وطرق مقاومتها.

2- التعليم بقسميه المسجدي والمكتبي، وشرح أحواله وعوارضه التي هو عليها الآن وكيف ينبغي أن يكون.

لقد كان "التعليم العربي" هدفاً من الأهداف الرئيسية للجمعية، وبتخاذها المدرسة سلاحاً لمحاربة الاحتلال الفرنسي، استطاع أن ينفذ إلى أذهان الجزائريين ويغرس فيهم حبّ العربية والعلم وطلبه، بل أصبح الجزائريون يرون في المدرسة "جنت الدنيا، وشعارهم في هذا كان - كلّ شعب لا تبني له المدارس، تبني له السجون -"¹⁴، فمن لا لغة له لا دين له، وبذلك تنافس الأهالي على تعليم أبنائهم اللغة العربية وفي هذا تحدّد واضح لسياسة فرنسا التي اعتمدها منذ احتلالها للجزائر، "وانتشرت دور التعليم في كامل القطر وأصبحت العربية هي اللسان الأول في الجزائر بعد أن أعلن الاستعمار حربه وحققه عليها في حين راهن البعض على عروبة الجزائر."¹⁵

وكان من أبرز مواقف رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هو موقفه من التعليم العربي والديني، حيث سعى الشيخ إلى توسيع دائرة التعليم الحرّ بإحداث "مكاتب حرّة للتعليم المكتبي للصغار، وتنظيم دروس في الوعظ والإرشاد الديني في المساجد وتنظيم محاضرات في التهذيب وشؤون الحياة العامة في النوادي..."¹⁶

بلغ عدد مدارس الجمعية عام 1935 م (70 مدرسة)، يختلف عدد الحجرات فيها من مدرسة إلى أخرى حيث نجد بعضها يضمّ "غرفة أو غرفتين، وهناك عدد قليل منها يضمّ غرفاً متعدّدة، مثل مدارس الجمعية التي أنشئت في الجزائر العاصمة، وقسنطينة، وتلمسان، ويقدر عدد تلاميذ هذه المدارس في ذلك العام قرابة (30000 تلميذ) ما بين فتى وفتاة."¹⁷ حيث أبدت اهتماماً متميّزاً بتعليم البنات، الأمر الذي لم يكن شائعاً في تلك الفترة، وكان الأمل أن ينشئ معهداً للبنات ولكن الخطة لم تنفّذ¹⁸، يدفع البنين القادرين حقوق التسجيل أما البنات فتدرس مجاناً، "وكان يدير هذه المدارس معلّم واحد، أو بعض من المعلمين."¹⁹

وقد عمل ابن باديس على ممارسة نوعين من التعليم: التعليم المسجدي والتعليم المكتبي، والغرض منهما هو تعليم اللغة العربية ومبادئ الدين الإسلامي الحنيف، وقد خصّ بالتعليم المكتبي تعليم الأطفال، ذي الأهداف الآتية²⁰:

أولاً: الصلة بينهم وبين أسلافهم.

ثانياً: الكنز الذي حفظ لهم تراث ذلك السلف.

ثالثاً: لسان الثقافة الإسلامية.

رابعاً: لسان القرآن الكريم والسنة الشريفة اللذين هما أصل تلك الثقافة."

وقد ركّز على هذه الأهداف لأنه لا يمكن الفصل بين اللغة العربية وفكر الإنسان العربي ولسانه، "فهني للمسلم الصلة والانتماء، إنَّها الشكل والأداة التي تميّز الأمة الجزائرية عن الوافد المحتلّ. أما الإسلام فهو الفكر الذي غدّى اللغة العربية وأنقذها من التلاشي والاضمحلال، إنّه المنهل الذي تستقي منه اللغة حياتها، أما التاريخ فيغني اللغة بمختلف أحداثه ليكون هو المرجع وتكون هي الوعاء الذي يحفظ ثقافتنا وتراثنا وإرثنا الحضاري"²¹، لهذا بذل عبد الحميد بن باديس جهوداً مضيئة في سبيل نشر التعليم العربي.

3-اهتمام ابن باديس باللغة العربية والتعليم:

اللغة في نظر ابن باديس هي الجسر الذي يصل أبناء الأمة بأسلافهم وبما تركوه من مجد وفكر، وهو الذي يربطهم بأبنائهم وأحفادهم في المستقبل، ويعزّز الروابط بين أفراد الأمة الواحدة.²²

وقد أسّس ابن باديس جمعية التربية والتعليم الإسلامية، والتي جاء في المادة الثالثة منها: تسعى الجمعية لقصدها هذا، أولاً-بتأسيس مكتب للتعليم، ثانياً-بتأسيس ملجأ للأيتام، ثالثاً-بتأسيس ناد للمحاضرات، رابعاً-بتأسيس معمل للصنائع، خامساً- بإرسال التلامذة على نفقتها إلى الكليات والمعامل الكبرى.²³

وقد شهد في هذه الفترة الجامع الأخضر بقسنطينة حركة علمية نشيطة، بلغ إثرها عدد التلامذة: نحو الثلاثمائة تلميذ. تلقى عليهم علوم متعدّدة في: التفسير، والحديث، والفقه، والفرائض، والعقائد، والأدب، والمواعظ، والتجويد، والأصول، والمنطق، والنحو، والصرف، والبلاغة، والأدب، ومحفوظات، ومطالعات، ودراسة، والإنشاء، والحساب، والجغرافية، والتاريخ.

وقد تمثّلت الكتب المدروسة في: الموطأ، وأقرب المسالك، والرسالة، وابن عاشر، والزندبوي، والمفتاح، والتنقيح، والسلم، والمكودي، والقطر، والآجرومية، والزنجاني، واللامية، والسعد، والجواهر المكنون، من ديوان الحماسة، من ديوان المتنبي، آمالي القالي، من مقدمة ابن خلدون.

وقد اشتغل بالتدريس فيه المعلّمون الشيوخ الآتية أسماؤهم: عبد الحميد بن باديس، عبد الحميد بن الحيرش، حمزة بكوشة، المتخرجون من جامع الزيتونة المعمور. ومن كبار التلامذة الشيوخ: البشير بن أحمد، عمر دردور. بلقاسم الزغداني.²⁴

وكان الشيخ عبد الحميد بن باديس ينوي تأسيس كليّة دينية، نواتها هم الطلبة الذين يردون على الجامع الأخضر بقسنطينة من العملات الثلاث فلو أنّ الجمعية سعت لتوسيعها بترسيم معلّمين ورعاية مدد المتعلمين ووضع خطة التعليم لقامت بأعظم عمل علمي ديني للأمة في حاضرها ومستقبلها، ثم لا بد مع هذا من حيث كلّ شعبة من شعب الجمعية على ترسيم مدرس للتعليم في مسجدهم إن كان لهم مسجد ثم تسعى الجمعية لدى الحكومة لترسيم في كلّ مسجد من المساجد التي لنظرها مدرسا فقيها بالدين ليعلم الناس ما يحتاجون إليه من أمر دينهم، فكلية تخرّج المعلمين الدينيين ومعلمون في المساجد، إلا أن القرارات الجائرة منعت العلماء الأحرار من التعليم في المساجد حالت بينها وبين هذه الغاية.²⁵

لقد انتهج عبد الحميد بن باديس -رحمه الله- سياسة حكيمة في إدارة الجمعية، متمسكا بمبدأ الشورى، والنقاش وتبادل الآراء حول التعليم العربي الحرّ، ومدارسه ومساجده ونظمه وأساليبه... وغايته في ذلك توحيد مناهج التعليم العربي في مؤتمرات كانت تعقد لرجال التعليم العربي بنادي الترقى بالعاصمة، وقد حصر المسائل التي يتقدّموا بأرائهم فيها في شكل تقارير ملخّصة في المسائل الآتية:

- 1- وسائل توحيد التعليم.
- 2- أسلوب التعليم.
- 3- أسلوب تربية الناشئة.
- 4- خلاصة تجاربهم في التربية والتعليم.
- 5- الكتب وهل الأحسن اختيار كتب مصرية أو تأليف كتب تتفق مع الروح الجزائرية.
- 6- رأيهم في تعليم البنت المسلمة ووسائل تحقيقه.
- 7- التعليم المسجدي ووسائل تنظيمه وترقيته.
- 8- رأيهم في الوسيلة التي نعيد بها المرأة المسلمة سيرة سلفها من تلقي العلم.
- 9- تقارير مفصلة لدرجة إقبال الأمة على التعليم بأقسامه السابقة (كل في جهته).²⁶

لقد أحدثت دروس ابن باديس ثورة تعليمية حقّة، ذلك أنّه ركّز على التربية الصحيحة والإعداد البعيد المدى، "فما كادت تنقضي مدّة حتى كان الفوج الأول من تلاميذ ابن باديس مستكمل الأدوات من فكر صحيح وعقول نيّرة، ونفوس طامحة، وعزائم صادقة، وألسن صقيلة، وأقلام كاتبة..."²⁷، ومن بين هؤلاء ثلّة التحقت بجامع الزيتونة لتكمل دراستها على الأساس العلمي الصحيح والمبادئ المحكّمة، وهؤلاء هم الذين عادوا إلى وطنهم للمساهمة في الإصلاح الذي شرع فيه ابن باديس ورواد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

3- ركائز التعليم عند ابن باديس:

لا تتم غايات التعليم ولا غايات التربية إلا بتوحيد منهاج التربية أي المجالات التي يتّجه الاهتمام فيها إلى بناء مكونات الإنسان، وتوحيد برنامج التعليم (الذي يركّز الاهتمام فيه على تمكين المتعلم من أهم المعارف المتّصلة بلغته ودينه وتاريخه وحقائق الحياة المحيطة به).²⁸

وبما أنّ (ابن باديس) كان يهدف إلى تعليم الناشئة اللغة العربية والأخلاق الإسلامية الراقية فيفترض في المنهاج اللغوي الذي يعتمد "أن تكون له بنية محدّدة تضطلع بوظيفة مرصودة. أما وظيفته فتتخصر في إكساب الطالب... القدرة على أن يتواصل بهذه اللغة، بحيث يصير عند نفاذ المنهاج من أهل لسان حضارة القرآن..."²⁹

هذا هو الهدف عينه الذي يسعى (ابن باديس) إلى تحقيقه، لذا ركزت معاهد التعليم في مناهجها على تعليم اللغة العربية والقرآن، وما يتصل به من علوم في التشريع، والأخلاق، والعقائد والتفسير والحديث إلى غيرها من علوم اللغة والدين، حيث كان منهج الدراسة يشتمل على المواد الآتية:

- تفسير القرآن وتجويده.

- الحديث النبوي.

- الفقه على المذهب المالكي.

- العقائد الدينية.

- الآداب والأخلاق الإسلامية.

- اللغة العربية بفتونها، من نحو وصرف، وبلاغة."³⁰

ولتحقيق الهدف عملت الجمعية على انتقاء مصادر المعرفة (الوسائل التعليمية) التي انحصرت في الكتاب لا غير، وقد احتلت هذه الوسيلة الركن المركزي في التربية والتعليم وفي نقل المعرفة عامة، ولكن كان للجمعية شروطها في اختيار الكتاب "وأما إصلاح الكتب فإن عمدة الجمعية في التذكير على كتاب الله، وحديث نبيه عليه الصلاة والسلام... دواوين الحديث الصحيحة، أمهات التفسير الموثوق بها. أما الدروس الأخرى فإنّ الجمعية تختار لها من الكتب ما هو أقرب إلى الإفادة، وأعون على تحصيل الملكة العلمية، وتجنب الكتب الجامدة المعقدة التي لا تفتق ذهنها، ولا تبعث في نفس الدار نشاطا، وتختار للمطالعة في مختلف العلوم الكتب الحية السهلة."³¹

وتذكر المصادر أنّ الجمعية اقتنت من الكتب أجودها في التاريخ العربي والإسلامي قديمه وحديثه، واعتمدت في تفسير القرآن على أحدث التفاسير في تلك الفترة وهو (تفسير المنار) للشيخ محمد عبده (1849-1905) ورشيد رضا (1865-1935)، وفي علم الحديث اختارت (الموطأ) للإمام مالك (93هـ-179هـ). كما عملت على مراقبة كل ما يدخل من كتب وتيارات عابثة بعقول الشعب لتصدّي لها وتجارها بلا هوادة."³²

والذي يبدو لنا أنّ الجمعية كان لها هدف أبعد من مجرد تعليم اللغة العربية والدين، وإنّما كانت تسعى لغرس حبّ البحث العلمي في جميع أعضائها، وتلامذتها والمنخرطين فيها، فهي تريد أن "تبثّ في أساتذتها وتلامذتها وجميع أعضائها المتعلمين على طريقتها روح المطالعة النافعة والبحث العلمي السديد، وترشدهم إلى كيفية المطالعة وطرائق البحث في التاريخ والاجتماع والآداب، والرجال، والكتب."³³

والعملية الإرشادية التي كان يقوم بها (ابن باديس) وما تميّزت به ملاحظاته من دقة حول العملية التعليمية التعليمية ككلّ - في عصره - يجعلنا نشبّه بما يعرف في المناهج التربوية الحديثة بـ "ميرج المنهاج اللغوي"، الذي هو "القاعدة التي تولّد المناهج المدرسية، ومصدر التعليمات التي ترشد المدرسين المنقّذين لصنّيعه، وهو أيضا أصل المهارات اللغوية، والقيم الحضارية"³⁴،

والذي ينبغي معرفته أنّ مهمة ميرج المنهاج اللغوي من أصعب المهامّ، لأنّه يجب أن يكون متقنا للغة بجميع مستوياتها التي هي عند معظمهم أربعة "أصواتا ومعجما وصرفا وتركيبا، ومما يزيد في تعقيد مهمّته أنّه لا يكفيه إتقان معرفة اللغة بفصوصها الأربعة المذكورة، بل ينبغي إجادة معرفتها وصفا، فضلا عن الإلمام بأوليات النظرية اللسانية عموما، وكلّ نقص في الوحدات الثلاثة: أولا المعرفة اللغوية، ثانيا المعرفة النحوية، ثالثا معرفة أوليات النظرية اللسانية، سوف ينعكس سلبا على المنهاج اللغوي."³⁵

وقد أشار حديثا الباحث عبد الرحمن الحاج صالح إلى هذا في مقاله المعنون بـ (أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية)³⁶، أين ذكر بعض ما يجب أن يعرفه معلّم اللغة العربية من ذلك: -العلم النظري، فحاجته إليه كبيرة لأنّه يساعد على تكوين تصوّر صحيح عن المادة التي يدرّسها، ثمّ إنّ الضرورة المنهجية تفرض على المعلّم التمييز بين العلم النظري والعلم التطبيقي، وعلى هذا الأساس فإنّ عبد الرحمن الحاج صالح يرى أنّه ينبغي أن تتوفر في مدرس اللغة العربية شروط ثلاثة هي:

1- الملكة اللغوية الأصلية: أن يكون قد تمّ اكتسابه للملكة اللغوية الأساسية التي سيكلّف بإيصالها إلى تلامذته (والمفروض أن يكون قد تمّ له ذلك قبل دخوله في طور التخصص).³⁷

2- أدنى كميّة من المعلومات النظرية في اللسان: أن يكون له تصور سليم للغة حتى يحكم تعليمها ولا يمكن أن يحصل على ذلك إلا إذا اطلّع على أهمّ ما أثبتته اللسانيات العامة واللسانيات العربية بصفة خاصة (وهي امتداد لبحوث المدرسة الخليلية).

3- ملكة تعليم اللغة وهي الهدف الأسمى بالنسبة له: أن يكتسب أثناء تخصّصه ملكة كافية في تعليم اللغة ولا يمكن أن يحصل على ذلك أيضا إلا إذا استوفى الشرط الآخر اللازم، وهو اطلّاعه على محصول البحث اللساني والتربوي وتطبيقه إياه في أثناء تخصّصه بكيفية عملية منتظمة ومتواصلة.³⁸

4- انتقاء المادة العلمية: وهنا طرح سؤالاً مفاده: "ماذا يجب أن نعلّم من اللغة؟ وكيف يجب أن نعلّمه؟" وقد يكون المقصود من المعرفة العلمية للمعلّم هو "إتقان معرفة العربية استعمال ضروري، لأنّه الصمام الذي يمنع الهفوات اللغوية الشائعة حاليا."³⁹

إضافة إلى أنّنا نرى أنّ المعرفة النحوية كما تمثل في وصف النحاة للعربية لا تقلّ أهمية عن المعرفة اللغوية في حدّ ذاتها... "لأنّها هي التي تكسب المعلّم ملكة لغوية، وتساعد في إنجاح العملية التعليمية التعليمية، وهو الهدف الأساسي الذي يصبو إليه عد الحميد ن باديس، ولا يمكن تحقيقه ما لم يتزوّد المعلّم هو نفسه بمعارف في تخصّصه تجمع بين المعلومات القديمة التي توصل إليها متقدمو العربية، وما يظهر من نظريات لسانية

حديثة أثبت العلم صحّتها، وصالحة للتطبيق على اللغة العربية، ثمّ يجب عليه الاعتماد على الكتاب المبرمج (المدرسي) لأنّه هو المعوّل عليه، و"لا شك في أنّ للعنصر البشري دورا أساسيا في النسق التربوي، فالمنهاج اللغوي، مهما كان محكم البناء، قد لا يحقّق أهدافه المرسومة إذا تولّى تنفيذه مدرّس غير مهيباً للمهنة، ولا كان له ما يلزم من الكفاءات المعرفية والخبرة التربوية."⁴⁰

لذا نجدّه قد وجّه اهتمامه للمعلمين بتقديم بعض النصائح لهم تتمثّل في كيفية التعامل مع المتعلّم للوصول إلى أهداف التعليم، ومن مراجعة دائمة للدروس التي يقدمونها للتلاميذ، ومسائل أخرى هي من صميم تعليمية اللغات الحديثة، من أقواله نذكر: "إن كثيرا منكم في حاجة إلى الاستزادة من التحصيل... فاعرفوا كيف تدخلون من باب التعليم إلى العلم، ومن مدخل القراءة إلى الفهم، وتوسعوا في المطالعة يتّسع الاطلاع" قادرين على أدائها عاملين بواجباتهم في مجال التعامل مع الأطفال.⁴¹

فما عبّر عنه بالاستزادة من التحصيل، والتوسّع في المطالعة هو ما عبّر عنه عبد الرحمن الحاج صالح بضرورة الإلمام بما جدّ في صعيد البحث اللساني، والإحاطة بالمفاهيم والتصورات العلمية عند متقدمي العربية وكذا المناهج البحثية القديمة فهي "لا تقلّ أهمية عمّا أثبتته اللسانيات الحديثة."⁴²

وزيد عبد الحميد ابن باديس على هذه النصائح فينبّه "المعلّمين أن يسلكوا في تعليم الأولاد أحدث الطرق وأقربها إلى أذهان الناشئة، وأن يقتصروا لهم من التعليم الديني على الآداب دون الأحكام".

أما عن طريقة التعليم المطبّقة، فقد اعتمد ابن باديس في تعليم العربية على أسلوب التلقين، وهو من الأساليب القديمة التي كانت سائدة وقد تحدّث عنها العلماء منهم (ابن خلدون في المقدمة)، فقد عهد (ابن باديس) إلى تكليف الأساتذة "بتلقين التلاميذ أبسط القواعد في أسهل التراكيب ثم تمكينها من نفوسهم بالتمرينات التطبيقية، والحرص على إشرابهم معنى ما يقرأون، والاجتهاد في تربية ملكة الذوق والاستنتاج في نفوسهم، وفي إصلاح اللهجات التي حرفها العامية عن سبيلها العربي وتقويم اللسان على الحروف وهيأتها ومخارجها والتشجيع على التكلّم أمام الناس بما يمليه الخاطر..."⁴³

وعليه يمكن تلخيص الأسس التي اعتمدها ابن باديس في التعليم في:

- المنهج الدراسي.

- استعداد المعلّم وثقافته، ودعوته إلى التحصيل والإلمام بالمعارف قديمها ومحدثها.

- المتعلّم ودوافعه، والاهتمام به.

- اعتماد أحدث الطرق التربوية في التعليم.

- الكتاب المدرسي، وحسن انتقائه.

- اختيار المعلمين، والإشراف على سلوكهم، ونشاطهم.

5- الأهداف التعليمية لابن باديس:

لقد كان لابن باديس أهداف من العملية التعليمية التعلمية، والتي يمكن تلخيصها في⁴⁴:

- تمكين المتعلمين من الاطلاع على تاريخهم وفهم تراثهم وثقافة أمتهم.
- غرس حبّ اللغة العربية في نفوس المتعلمين وجعلهم يتذوقون خصائص التعبير بها ويدركون أسرارها.
- اعتماد النصوص اللغوية مصدرا حيا لتربية الأجيال وتوسيع آفاقهم وصقل أذواقهم وتهديب مشاعرهم.
- ترقية أساليب تعليم اللغة العربية وتطوير مضامين المناهج ودفع المعلّمين والمتعلّمين إلى استخدام الأساليب الصحيحة والراقية.

وبالرغم من كلّ العراقيل التي تفتّن المختلّون في استحداثها من ذلك محاربة التعليم العربي الحرّ، "وفرض نظام فرنسي قلبا وقالبا، كما شنت حربا على المعلّمين وفرضت عليهم شروطا مجحفة إن أرادوا القيام بعملهم، وقد بلغت محاربة فرنسا لحركة التعليم العربي الحرّ ذروتها بصدور قانون 08 مارس 1938، هذا القانون الذي أصبح بمثابة سيف مسلّط على رقاب التعليم العربي الحرّ، وعلى رجاله ومؤسّساته. وهذا القانون وغيره كان عدّ أن أبي أفراد الشعب إرسال أبنائهم إلى المدارس الفرنسية، وأرسلوهم إلى مدارس الجمعية، وقبل ذلك كانوا يكتفون بالكتاتيب، ونشير هنا إلى أنّ المستعمر رغم إيجاده لبعض المدارس إلا أنّها كانت محدودة." ⁴⁵ رغم كلّ هذا واصل علماء الجمعية يتقدّمهم ابن باديس ونائبه محمد البشير الإبراهيمي في إصرار عازمين على تحقيق الأهداف المنشودة وفي هذا الصدد يقول الإبراهيمي في (البصائر 38/04/08): "...سنمضي بعون الله في تعليم ديننا ولغتنا رغم كلّ ما يصيبنا، وإننا على يقين من أنّ العاقبة وإن طال البلاء لنا، وأنّ النصر سيكون حليفنا، لأننا عرفنا إيماننا وشاهدنا عيانا أنّ الإسلام والعربية قضى الله بخلودهما ولو اجتمعوا كلهم على محاربتهما."

وكان من نتائج المقاومة أن بلغ عدد المدارس التي أنشأها رائد الإصلاح الجزائري ما يقرب 300 مدرسة، "حدّدت لها المناهج التعليمية، والتوجيهات البيداغوجية، وتوجّحت هذه الإنجازات بإنشاء معهد عبد الحميد بن باديس في قسنطينة، الذي كان يستقبل التلاميذ الذين أتموا دراستهم الابتدائية والمتوسطة، وكذلك الذين تخرّجوا من الزوايا أو من مؤسسات أخرى بلغ عدد طلابه في السنة الأخيرة (1954 أكثر من 900 طالب)." ⁴⁶

الخاتمة:

لقد تفتّن الفرنسيون في التخطيط للقضاء على اللغة العربية وإحلال الفرنسية مكانها، وبالتالي القضاء على الدين الإسلامي، إلا أنّها جوبهت بمقاومة عنيفة من أبناء هذا الوطن من ذلك الجهود التي بذلتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين برئاسة عبد الحميد بن باديس الذي عمل على فتح الكتاتيب والزوايا والمساجد والمدارس الحرّة، واستقبال أبناء الشعب في مختلف الأعمار ذكورا وإناثا لتعليمهم العربية ومبادئ الدين الإسلامي.

وبما أنّ النظام التعليمي هو نسق يتألف من مكوّنات ثلاثة هي المنهاج التربوي، والمعلّم ذو الكفاءة المعرفية، ومتعلّم متعدّد الحاجات، فقد أولى (ابن باديس) هذه الأقطاب أهمية، ولإنجاح العملية التعليمية التعلمية عمل

على اختيار الوسيلة التعليمية ووضع شروط في ذلك، أملا في تحقيق الأهداف التعليمية، وخلال سعيه لذلك دعا المعلمين إلى الانفتاح على الثقافات الأخرى، بعد التمكن من الثقافة الإسلامية.

لقد كانت غاية جمعية العلماء و(ابن باديس) من التعليم تعلّم العربية وعلوم الدين الإسلامي، وكذا العلوم اللسانية الغربية بغية مسايرة العصر، وقد التزمت الجمعية في التعليم الذي انتهجته كتبا معينة في العلوم الدينية والعلوم اللسانية والعلوم الخادمة للدين، وقد نجحت في تكوين ثلّة من المتعلّمين حملوا أعباء الجمعية أثناء فترة الاحتلال وغداة استقلال الجزائر.

الهوامش والإحالات:

- ¹ - نذير طيار: سياسة الاستئصال اللغوي بالجزائر في الوثائق الرسمية والخطابات السياسية الفرنسية من خلال كتاب: "السياسة الثقافية الفرنسية بالجزائر، أهدافها وحدودها، 1830-1962 كميل ريسليو (ترجمة نذير طيار) مجلة المجلس الأعلى للغة العربية، ص72
- ² - ينظر: رابح تركي: التعليم القومي والشخصية الوطنية الجزائرية، ش.و.ن.ت. الجزائر، 1981، ص109
- ³ - كمال خليل: مقام اللغة العربية في الترتيب العلمي لأبعاد الهوية عند جمعية العلماء ص40
- ⁴ - كمال خليل: مقام اللغة العربية في الترتيب العلمي لأبعاد الهوية عند جمعية العلماء ص42
- ⁵ - أحلام بن عمرة: قداسة شعار الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا، مجلة مجمع اللغة العربية ص134
- ⁶ - كمال خليل: مقام اللغة العربية في الترتيب العلمي لأبعاد الهوية عند جمعية العلماء ص46
- ⁷ - ينظر: عبد القادر فضيل: دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الدفاع عن اللغة العربية أثناء الاحتلال الفرنسي، مقال منشور على الشبكة بتاريخ: الاثنين 22 ذو الحجة 1436هـ -5-10-2015م
- ⁸ - كمال خليل: مقام اللغة العربية في الترتيب العلمي لأبعاد الهوية عند جمعية العلماء ص44
- ⁹ - كمال خليل: مقام اللغة العربية في الترتيب العلمي لأبعاد الهوية عند جمعية العلماء ص44
- ¹⁰ - عبد القادر فضيل: دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
- ¹¹ - أحلام بن عمرة: قداسة شعار الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا، مجلة مجمع اللغة العربية ص136
- ¹² - أحلام بن عمرة: قداسة شعار الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا، مجلة مجمع اللغة العربية ص135
- ¹³ - ينظر: سجل مؤتمر جمعية العلماء ص7
- ¹⁴ - ناصر لوحيشي: فضل جمعية العلماء المسلمين في الحفاظ على الهوية اللغوية العربية، أعمال ندوة المجلس الأعلى للغة العربية، الجزء الأول 2016، ص33
- ¹⁵ - كمال خليل: مقام اللغة العربية في الترتيب العلمي لأبعاد الهوية عند جمعية العلماء ص37
- ¹⁶ - سجل مؤتمر جمعية العلماء ص49
- ¹⁷ - ناصر لوحيشي: فضل جمعية العلماء المسلمين في الحفاظ على الهوية اللغوية العربية ص33
- ¹⁸ - ينظر: عبد القادر فضيل: دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
- ¹⁹ - ناصر لوحيشي: فضل جمعية العلماء المسلمين في الحفاظ على الهوية اللغوية العربية ص33
- ²⁰ - سجل مؤتمر جمعية العلماء ص85
- ²¹ - مختار سويلم: الشعر وخطاب الهوية لدى شعراء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين محمد العيد آل خليفة أفودجا ص212
- ²² - ينظر: عبد القادر فضيل: دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
- ²³ - عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي (ت 1359هـ): آثار ابن باديس، تحق: عمار طالبي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، ط1، (عام 1388 هـ - 1968 م)، 4 أجزاء، 185/3
- ²⁴ - ينظر: عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي (ت 1359هـ): آثار ابن باديس 229/3
- ²⁵ - ينظر: سجل مؤتمر جمعية العلماء ص80
- ²⁶ - عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي (ت 1359هـ): آثار ابن باديس 238/3
- ²⁷ - سجل مؤتمر جمعية العلماء ص37
- ²⁸ - عزار حسينة: مدونة آثار محمد البشير الإبراهيمي دراسة وصفية تحليلية - نماذج لحقل التربية ص230
- ²⁹ - محمد الأوراني: اللسانيات النسبية وتعليم اللغة العربية ص67
- ³⁰ - أحلام بن عمرة: قداسة شعار الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا، مجلة مجمع اللغة العربية ص127
- ³¹ - سجل مؤتمر جمعية العلماء ص50
- ³² - ينظر: كمال خليل: مقام اللغة العربية في الترتيب العلمي لأبعاد الهوية عند جمعية العلماء ص51

- 33 - سجل مؤتمر جمعية العلماء ص52
- 34 - محمد الأوراعي: اللسانيات النسبية وتعليم اللغة العربية ص23
- 35 - محمد الأوراعي: اللسانيات النسبية وتعليم اللغة العربية ص26
- 36 - ينظر: مجلة اللسانيات العدد 1971/4 ص21
- 37 - م.ن ص41
- 38 - م.ن ص42
- 39 - ينظر: محمد الأوراعي: اللسانيات النسبية وتعليم اللغة العربية ص26
- 40 - محمد الأوراعي: اللسانيات النسبية وتعليم اللغة العربية ص49
- 41 - عزار حسينة: مدونة آثار محمد البشير الإبراهيمي دراسة وصفية تحليلية - نماذج لحقل التربية ص230
- 42 - م.ن ص26
- 43 - سجل مؤتمر الجمعية ص50
- 44 - عبد القادر فضيل: دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
- 45 - فاتح مرزوق: نماذج من استعمال العربية عند أعضاء الجمعية البشير الإبراهيمي نموذجاً ص192
- 46 - عبد القادر فضيل: دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين